سورة فاطر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ[2] السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① ﴾

تعرَّضنا للسور التى بُدئت بالحمد لله ، وهى : الأنعام ، والكهف ، وسبأ . وهنا فى فاطر ، والحمد فى كل منها له معنى وله مناسبة ؛ لأن الإنسان احتاج إلى إيجاد من عدم ، ثم وسائل إبقاء فى الحياة الدنيا ، ثم احتاج إلى إيجاد بعد البعث ، وأيضاً وسائل إبقاء فى الآخرة .

فسورة الكهف تعرضت لحمد الله على المنهج ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ

---

(١) سورة فاطر سورة مكية فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٩٠) وهى السورة رقم (٣٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٤٥) آية ، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم ، فهى السورة رقم (٤٢) فى ترتيب النزول ، وتسمى أيضاً سورة الملائكة لذكرهم فيها .

(٢) الفاطر : الخالق . والفَطْر : الشق عن الشيء . والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ①﴾[فاطر] حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى : أنا ابتدأتها . [تفسير القرطبى ٨/٥٥٩٠] .

عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. (١)﴾[الكهف] ؛ لأن المنهج هو وسيلة الاستبقاء للإنسان ، فلولا أن المنهج يُبيِّن للناس الحق والباطل لتفانى الخَلْق ، وما استقامتْ لهم الحياة ، أما سورة سبأ فتعرضت لحمد الله على نعمه فى الدنيا وفى الآخرة .

وهنا فى فاطر : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً (١)﴾[فاطر] ؛ فذكرتْ الحمد على وسائل الإبقاء كلها ، المادى منها المتمثل فى مُقوِّمات الحياة المادية ، والمعنوى منها المتمثل فى منهج الله .

والحمد على إطلاقه لله تعالى ، حتى إنْ توجه للبشر ، فمردُّه إلى الله ؛ لأنك حين تحمد البشر تحمده على شيء قدَّمه لك ، هذا الشيء ليس من مِلْكه فى الحقيقة ، ولا من ذاته ، إنما هو من فيض الله عليه ، فهو مناول عن الله ، وإنْ قدّم لك عملاً فإنما يقدِّمه بالطاقة التى خلقها الله فيه ، وبالجوارح التى انفعلتْ بخَلْق الله فيه ، إذن : فالحمد بكل صيغة راجع إلى الله تعالى .

ثم يأتى بحيثية من حيثيات حَمْد الله ، فيقول ﴿فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (١)﴾[فاطر] ومعنى فاطر السموات والأرض : خالقها ومُبدعها على غير مثال سابق يُحتذى به ، وهذه مسألة تستحق الحمد ؛ لأن الله تعالى كرَّم الإنسان الخليفة فى الأرض ، فسَوَّدهُ على سائر الأجناس وكرَّمه بالعقل الذى يختار بين البدائل .

وبعد ذلك بيَّن سبحانه إنْ كان خَلْق الإنسان مُعْجزاً ، وإنْ كان هو السيد المخدوم من جميع الأجناس ، فإنَّ خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس وأعظم ؛ لذلك لما تكلم سبحانه عن حمد الله ذكر أكبر المخلوقات وأعظمها ، وهى السموات والأرض .

والسماء هى كل ما علاك ، لذلك تُطلق على السحاب ، فهو السماء التى ينزل منها المطر ، كما قال سبحانه ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر] ، وليست هذه هى السماء المقابلة للأرض .

والله تعالى يقول فى خلق السموات السبع : ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقًا (٣)﴾ [الملك] يعنى : ليس بها فتوق أو شقوق ، فكيف إذن تنزل الملائكة ومسكنهم السماء ، كيف ينزلون إلى الأرض ؟

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤)﴾ [القدر]

الحق سبحانه يُقرِّب لنا وظيفة الملائكة ، وأنها خاصة بالسماء صعوداً وهبوطاً ، فقال فى آية فاطر ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ (١)﴾[فاطر] فعملهم إذن فى السماء ، لكن كيف يَنْفُذون من السماء ، وليس بها فتوق ولا شقوق ، قالوا : ينفذون ؛ لأن طبيعتهم الملائكية الشفافة تسمح لهم بذلك ، فالإنسان مثلاً خُلِق من طين ، والطين له جِرْم ومادة لا تمكنه أنْ ينفذ من شىء .

أما الجن فقد خلقه الله من النار ، وللنار أيضاً جِرْم ومادة ، لكن ألطف وأشفّ من الطين ؛ لذلك ينفذ الجن من الأشياء المادية ، بدليل أنك لو جعلتَ مثلاً تفاحة خلف جدار ، فإنك لا ترى شكلها ، ولا تحسُّ طعمها ولا رائحتها ، لكن لو أوقدتَ ناراً خلف هذا الجدار فإنك بعد قليل تُحسّ بحرارتها فى الجهة الأخرى ، وهكذا ينفذ الجن كما تنفذ الحرارة .

أما الملائكة فهى أَرْقى الأجناس وأعلاها ، خلقها الله من نور ، وهو ألطف وأشفّ من الطين ومن النار ؛ لذلك لا يحتاج النور إلى منافذ ، أرأيتم مثلاً الأشعة التى تخترق الجسم وتعطينا صورة كاملة

لما بداخله كالقلب أو غيره ؛ هكذا الملائكة تنفذ لا يحجزها شيء .

وقوله سبحانه ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ۝١ ﴾[فاطر] الملائكة جنس من المخلوقات ، قال الله عنهم : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ﴾ [الأنبياء] والملائكة أقسام : فمنهم العالُون ، وهم المهيَّمون فى الله ، ولا عملَ لهم إلا عبادته سبحانه ، وهؤلاء لا يدرُونَ شيئاً عن هذا الكون ، ولا صلةَ لهم به ؛ لذلك لما أبَى إبليس أنْ يسجد لآدم كما أمره الله ، قال الله له : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ ﴾ [ص]

ومن الملائكة قسْم له علاقة بالإنسان ، وهؤلاء هم الذين أُمروا بالسجود لآدم ، وكأن الله تعالى يقول لهم : هذا المخلوق هو الذى ستكونون فى خدمته ، ومنهم : المعقبات ، كما قال سبحانه :﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝١١ ﴾[الرعد] يعنى : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، وإلا فالملائكة لا تمنع عن الإنسان أمراً قضاه الله عليه .

إذن : حفْظهم لنا حفْظ من باطن حفْظ الله لنا ؛ لذلك يقولون مثلاً (العين عليها حارس) ، ونرى مثلاً من يسقط من الطابق الثالث أو الرابع ، ولا يصيبه مكروه ؛ لأن الله سبَّب له أسباب النجاة ، وحفظته الحفظة .

ومن هؤلاء المدبرات أمراً ، الذين قال الله عنهم : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾[النازعات] وهم الذين يُدبِّرون أمور الخَلْق بأمر الله ، ومنهم الكتبة الذين يكتبون الأعمال : ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ ﴾ [الانفطار]

هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﴿ رُسُلاً ۝١ ﴾[فاطر] إما إلى الرسل من البشر يحملون إليهم منهج الله ، وإما رسلاً منه سبحانه لمهامهم التى

تتعلق بهذا الكائن الإنسانى . ثم وصفهم فقال : ﴿أُولِى (١)﴾ [فاطر] أصحاب ﴿أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ (١)﴾ [فاطر] وهذا الوصف دلَّ على صلة الملائكة بالجو والسماء ، ومهمة الصعود والهبوط ، وهذه الأجنحة ليس لها نظام ثابت ، بل منهم مَنْ له مثنى ، ومَنْ له ثلاث ، ومَنْ له رُبَاع ، بل ويزيد الله فى ذلك ما يشاء ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١)﴾ [فاطر]

وكأن الخالق سبحانه يقول لنا : إنْ كنتم لم تروْا إلا جناحين للطائر ، فلا تتعجبوا ولا تنكروا أنْ يكون للملَك أكثر من ذلك ؛ لأنه خَلْق الله الذى يزيد فى الخَلْق ما يشاء ، والذى له سبحانه طلاقة القدرة ، فخَلْق الله ليس عملية ميكانيكية أو قوالب تُصَبُّ على شكل واحد ، وخَلْق الله ليس مخبزاً آلياً يُخرِج لك الأرغفة متساوية .

وتتجلى طلاقة القدرة فى الخَلْق منذ خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، فإنْ كانت مسألة التناسل تقوم على وجود ذكر وأنثى ، ومن هذه جاءت جمهرة الناس ، فطلاقة القدرة تخرق هذه القاعدة فى كل مراحل القسمة العقلية لها ، فالله خلق آدم عليه السلام من لا أب ولا أم ، وخلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب .

فما دام أن الذى يزيد فى الخَلْق هو الله ، فلا تتعجب ولا تُكذِّب حين تسمع الحديث النبوى ، قال ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح »[1] صدِّق ؛ لأنك لستَ مسئولاً عن الكيفية ، إنما عليك أنْ تُوثق

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤١٢ ، ٤٦٠) من حديث ابن مسعود فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم] قال قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل والدر والياقوت » . وقد قوَّى ابن كثير إسناده فى تفسيره (٤/٢٥١) .

الكلام : صدر من الله أو لم يصدر ، صَحَّ عن رسول الله أو لم يصح ، كُنْ كالصِّدِّيق لمَّا حدثوه عن الإسراء والمعراج وقالوا : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال الصِّديق : « إنْ كان قال فقد صدق»(١) .

لذلك ، فالذين يبحثون فى علَل الأحكام عليهم أنْ يَدَعُوا البحث فيها ، ويكفى أنْ يُوثِّقوا مصدرها ، فإنْ كانت من الله فعلىَّ أن أفعل لمجرد أن الله أمرنى بذلك ، فَعِلَّة الحكم أن الله أمر به ، فهمتُ حكمته أو لم أفهم .

ونرى بعض العلماء يحرصون على استنباط الحكم من كل عبادة من العبادات ، فيقولون مثلاً : شرع اللهُ الصومَ ليدرك الغنىُّ ألمَ الجوع ، فيعطف على الفقير ، وهذا يعنى أن الفقير لا يصوم ، فالأقرب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أمرنى بالصوم .

فأنت مثلاً لا تسأل الطبيب لماذا كتب لك دواء كذا وكذا ، بل تترك له هذه المهمة ، وما عليك إلا أنْ تتناول الدواء ، ولا يسأل الطبيب ، ولا يناقشه فى هذه المسألة إلا طبيب مثله ، لكن هل هناك مُسَاوٍ لله فيسأله : لماذا فُرِض علينا كذا أو كذا ؟

فقوله سبحانه ﴿ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١) ﴾[فاطر] دليل على طلاقة القدرة التى لا يعجزها شىء ، ومن طلاقة القدرة أنْ ترى الطويل والقصير ، ولا تكاد تُفرِّق بين قامات الناس وهم جلوس ؛ لأن منطقة الصدر والبطن متقاربة الطول ، إنما تُفرِّق بينهم حال الوقوف ؛ لأن

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

معظم الطول فى السيقان والأوراك ؛ لذلك تنظر إلى رجلين وهما جالسان ترى طولهما واحداً ، فإنْ قاما ظهر الفارق ، وهذا يسمونه (الحبتر)[١]

من طلاقة القدرة اختلاف الخَلْق فى الشكل ، وفى اللون ، وفى الطباع ، وفى الذكاء ؛ لذلك من وقت لآخر نرى طفلاً برأسين ، أو بيد فيها ستة أصابع ، أو دابة بخمسة أرجل ، من طلاقة القدرة أن ترى هذا وسيماً معتدل الصورة ، متناسق الأعضاء ، كهؤلاء الذين تنطبق عليهم شروط القبول مثلاً فى الكليات العسكرية أو البوليس ، وترى آخر جبهته نصف وجهه ، أو أنفه كذا وكذا .. إلخ . هذا جرىء القلب ، وهذا رعديد جبان ، هذا فصيح اللسان ، وهذا عَيِى لا يكاد ينطق ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم]

من طلاقة القدرة أنه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى]

من طلاقة القدرة أنْ يؤلف الله سبحانه بين الأجناس المتباعدة تآلُفَ مصلحة وانتفاع ، ففى السودان مثلاً بيئة تعيش فيها التماسيح ، ورغم ما عرفناه من شراستها إلا أن الله ألَّف بينها وبين الطيور ، فجمعتهم مصالح مشتركة : التمساح يخرج إلى البرِّ ثم يفتح فَاهُ ، فيأتى الطائر ويدخل فم التمساح ، ويُنظف له أسنانه ويتغذَّى على بقايا طعام التمساح ويخلِّصه من الفضلات ، فإذا أحسَّ الطائر

(١) الحبتر : القصير ، وكذلك البُحْتر . والحبترة : من أسماء الثعالب . [لسان العرب - مادة حبتر] .

بقدوم الصياد صوَّت ليحذر التمساح ، فتسرع إلى الماء ، سبحان الله الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

إنك تتعجب من طلاقة القدرة حين ترى عنق الزرافة أو الجمل ، وعنق الدب مثلاً ، فكُلٌّ له ما يناسبه .

تذكرون أنه عندما تكلم العلماء عن الحواس ، قالوا : الحواس الخمس . واحتاطوا للأمر وللزيادة فقالوا : الخمس المعروفة ، وبالفعل عرفنا بعدها حواسَّ أخرى ، كحاسة البَيْن التى نعرف بها مثلاً سُمك القماش ، وعرفنا حاسَّة العَضل التى نعرف بها ثقل الأشياء .

كما أن أعضاء الإنسان وحواسّه تؤدى مهمتها مع اختلافها من شخص لآخر ، فنحن جميعاً نرى بالعين ، ونسمع بالأذن ، ونشُم بالأنف وهكذا ، لكن ألم تسمع ؛ فلان هذا يسمع دبة النملة ، وروى لنا التاريخ عن شخصيات كانت ترى لمسافات بعيدة على غير المعتاد[١] ، هذا كله زيادة فى الخَلْق ، يختصُّ الله بها مَنْ يشاء .

لذلك يقول الشاعر :

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُوظَ ... فَلا عتَابَ ولاَ مَلاَمَه
أَعْمى وأَعْشَى ثُمَّ ذُو ... بَصَرٍ وزرْقَاء اليمَامَه

وزرقاء اليمامة يُضرب بها المثل فى حِدة البصر ، فيقولون : أبصر من زرقاء اليمامة .

(١) هى : الزرقاء ، من بنى جديس ، من أهل اليمامة ، مضرب المثل فى حدة النظر وجودة البصر . قالوا : إنها كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام . وذكروا من أخبارها أن حسان بن تبع الحميرى لما أقبلت جموعه تريد غزو «جديس» رأتهم الزرقاء وأنذرت جديساً ، فلم يصدقوها ، فاجتاحهم حسان . [الأعلام للزركلى ٣/٤٤]

ويُلخِّص الشاعر[1] قصة فتاة منحها الله هذه الزيادة في البصر ، فقال :

وَاحْكُمْ كحُكْمِ فَتَاة الحيِّ إذْ نظرَتْ ∴ إلى حمام شِراعٍ وَارد الثَّمَدِ[2]

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ∴ إلى حمامتنا أو نصفه فقد

وكان عندها حمامة واحدة ، فتمنَّتْ أنْ ينضم هذا السرب ونصفه إلى حمامتها ، وبذلك سيكون عندها مائة :

فَعَدوه فَألْفَوْهُ كما حكمَتْ ∴ ستّاً وستِّين لَمْ تنقُصْ ولم تزد[3]

فتأمل هذه الفتاة تنظر إلى سِرْب الحمام وتعده ، وتضيف إليه نصفه ثم تضيف حمامتها ، فيكون لديها مائة حمامة ، هذه قوة في البصر ، وقوة في الملاحظة .

كذلك حاسة الشم فيها عجائب مما يزيده الله في هذه الحاسة عند مَنْ شاء أن يزيده ، والمثال الواضح لحاسة الشم وتمييز الروائح عند كلب البوليس مثلاً ، وحاسة الشم قوية أيضاً عند الذين يبيعون الروائح والعطور ، فأنت تقول رائحة طيبة ، لكن قليل مَنْ يميز بين هذه الروائح ، أما بائع الروائح فرغم امتلاء أنفه بهذه الروائح الطيبة إلا أنه يستطيع أن يُميِّزها فيقول لك : هذه رائحة ورد ، وهذه رائحة

---

(١) الشاعر هو : النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري ، أبو أمامة ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ، من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء فتُعرض عليه أشعارهم ، كان حظياً عند النعمان بن المنذر ، عاش عمراً طويلاً ، توفي عام ١٨ ق . هـ [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة للنابغة الذبياني ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها خمسون بيتاً مطلعها : يا دار مية بالعلياء فالسند . و « الثمد » هو الماء القليل الذي لا مادّ له . وقيل : هو الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف .

(٣) لفظ هذا البيت كما في كتاب « أدب الكتاب » لأبي بكر الصولي (توفي عام ٣٣٥ هـ) :

فحسبوه فألفوه كما زعمت ∴ تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد

فكملت مائة فيها حمامتها ∴ وأسرعت حسبة في ذلك العدد

فل ، وهذه كذا ، وهذه كـذا ، فإنْ خُلِط له عـدة أنواع يقول لك : هذا مخلوط .

أما سيدنا يعقوب عليه السلام فـقد تميَّز فى هذه الحاسة بصورة عجيبة ، وتعلمون أنه ابتلى بـفقد ولده يوسف - عليه السلام - حين رمـاه إخوته فى البـئر ، وانتـهى الأمـر به إلى أنْ صار على خـزائن مصـر كلها ، وجاءه إخـوته يطلبون المـيرة[1] إلى أن أعطاهم قمـيصه ليجعلوه على وجـه أبيه فيرتد له بصره ، العجـيب هنا أنه لما فصلت العـير يعنى : خـرجت من مصـر وعن حيـزها السكانى لأن المنطقـة السكنية تكـثر الروائح فيـها وتختلط ، فلمـا خرجوا بقـميص يوسف خـارج المـدينة ، قال يـعقـوب عليـه السـلام - وهو آنذاك - بأرض فلسطين : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ (٩٤)﴾ [يوسف] ، لأن فى قـمـيص يوسف شيئاً من رائحته .

ومع تقـدُّم العلم عـرفنا أن الـرائحـة هى أقـوى الآثار الدالة على الإنسان ، وأن للرائحة بصـمة كبصمة اليد أو بصـمة الصوت ؛ لذلك حتى فى لغـتنا العاميـة نقول (مش ح اخللى لفلان ريحـه) ، وكأن الرائحة هى آخر أثر يمكن أنْ يتبقَّى للإنسان فى المكان .

كـذلك يزيد الله فى الخلق مَـا يشـاء فى حـاسـة الذوق ، وبعض الناس حـرفتـه وعمله أنه ذوَّاقـة يذوق الطعـام ، ويزيد الله فى الخَلْق ما يشاء فـى حاسة اللمس ، وكلنا رأى الصراف فى البنك بـمجرد أنْ تلمس أصابعه العملة يعرف جَيِّدها من زائفها .

كل هذه المعانى نفهـمها من قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

(١) الميرة : الطعام يمتاره (يجلبه) الإنسان . قال ابن سيده : الميرة جلب الطعام . والميَّار : جالب الطعام . [لسان العرب - مادة مير] .

(١)﴾[فاطر] ثم تختم الآية بما يُطمئن القلوب إلى هذه الطلاقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾[فاطر] هذه هى العلة ، يعنى : لا تتعجب ، فهى قدرة الله التى لا يُعجزها شىء ، وشىء هذه تعد جنس الأجناس ؛ لأنها تشمل من الذرَّة إلى المجرَّة ، وهو سبحانه يقول للشىء كُنْ فيكون ، فكأنه موجود فى علم الغيب ينتظر الأمر بأن يظهر .

وبعضهم قال : (يَزِيدُ فى الحَلْق) بالحاء[1] ، والمراد : جمال وعذوبة الصوت[2] ؛ لأنَ الصوتَ وسيلةٌ لنقل خواطر المتكلم إلى السامع ، وهذه يكفى لها أىُّ صوت ، فإنْ كان الصوت جميلاً عَذْباً ، فهذه زيادة وفضل من الله.

ومن أغرب ما رواه لنا تاريخ العرب[3] ، ويُعَدُّ دليلاً على الزيادة فى الخَلْق ، والمواهب التى يختصُّ الله بها مَنْ يشاء ما رُوى عن نزار ابن معد بن عدنان ، وقد رزقه الله أربعة من الأولاد هم : مُضَر . ومن قبيلته جاء سيدنا رسول الله ﷺ ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ،

---

(١) لم أقف على هذه القراءة ، ولكن قال الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) (٣٣٨/٤) : « المعنى أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج . وقيل : إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهرى وابن جريج : إنها حُسْن الصوت . وقال قتادة : الملاَحَة فى العينين والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . وقيل : الوجه الحسن . وقيل : الحظ الحسن ، وقيل : الشعر الجعد . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع ، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص ، بل يتناول كل زيادة » .

(٢) قال الزهرى وابن جريج : يعنى حسن الصوت . وقال قتادة فى معنى الآية : المَلاحة فى العينين ، والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . [تفسير القرطبى ٥٥٩١/٨] . وقاله أيضاً ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر . [الدر المنثور للسيوطى ٤/٧] والأصح هو أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء من أجنحة وغيرها .

(٣) ذكر هذه القصة بطولها الإمام ابن الجوزى فى كتابه « الأذكياء » (ص ١٧٤) ، وابن حجة الحموى فى « ثمرات الأوراق فى المحاضرات » (٢٤٩/١) .

فلمـا أحسَّ نزار بدُنُوِّ أجله جـمع أولاده الأربعة وقـال لهم : أريد أنْ أدلَّكم على تركتكم منى قبل أن أموت : القبة الحمراء لمضر ، والفرس الأسود والـخبـاء الأسود لربيـعة ، والشـمطاء لإياد ، ومجلس القـوم ونديه لأنمـار . وإن اختلفـتم فاذهبـوا إلى الأفـعى الجرهمى بنجـران يُفسِّر لكم كلامى.

فلمـا مات نزار اخـتلف أولاده ، فذهبـوا إلى الأفعى الجـرهمى ، وهم فى طريقهم إلى نجـران - وكانت من أرض اليمن - رأى مُـضَر فى ناحـية الطريق مـرعىً رعَتْ فيه إبـل ، وفى الجانب الآخـر مرعى أحسن منه لـم يُمَسّ ، فقال : إن الجـمل الذى رعى هنا أعور . فـقال ربيعة : وهو أزور يعنى : أعرج . وقـال أنمار : هذا الجمل أبتر يعنى مقطوع الذيل . وقال إياد : وإنه لشرود .

وبينما هم على هذه الحـال قابلهم رجل ينشُد بعيـره يقول : هل رأيتم بعيراً شرد منى ؟ فقـال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، قال : وأزور؟ قال : نعم ، قال : وأبتر ؟ قال : نعم ، قال : وشرود ؟ قال : نعم ، هو شرود ، وأنتم أخـذتموه ، فاحتكموا إلى الأفـعى الجرهمى ، لأنهم كـانوا على مقـربة من نجران ، فلمـا سألهم قـالوا : ما أخـذنا الجمل .

فقال : إذن كيف وصـفتموه لصاحبـه هذا الوصف ؟ قال مُضَر : لما رأيتُه رعى جـانباً دون الآخر عرفتُ أنه أعور ، وقال ربيـعة : لما رأيتُ أثر خُفِّه على الأرض وجدت اليُمْنى سليمة البصمة على الرمال ، والأخرى غـير ذلك ، فـعرفتُ أنه أزْور ، وقال إياد : رأيـت بَعْره فى مكان واحـد ، فـعرفت أنه أبـتر ، ولو كـان له ذيل لفـرَّق بَعْـره هنا وهناك ، فقـال أنمار : لمـا رأيتُه يأكل من أمـاكن متـفرقـة عرفْتُ أنه

شرود . فقال الأفعى الجرهمى : خَلُّوا سبيلهم ، فتلك فراسة يهبها الله لمن يشاء .

ثم سألهم : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : نحن أولاد نزار بن معد بن عدنان ، وقد أوصانا أبونا إذا اختلفنا أنْ نحتكم إليك ، ثم قَصُّوا عليه مقالة أبيهم ، فقال : القبة الحمراء التى لمضر . أعطوه كل شىء أحمر كالدنانير والنُّوق الحمر ؛ لذلك سُمِّيت مضر الحمراء بعد أن صار مُضَر عَلَماً على القبيلة .

وقال : والفَرَس الأدهم (١) والخباء(٢) الأسود لربيعة يعنى : أعطوه كل شىء فيه سواد ، والشمطاء لإياد : أعطوه رُذَال(٣) المال و(المدعبلات) من الغنم . أما أنمار فله الفضة البيضاء والمجلس .

وبعد أن فسَّر لهم وصية أبيهم أراد أنْ يكرمهم ، فأمر كهرمانه أن يذبح لهم ذبيحة ، ويُعد لهم طعاماً وشراباً ، وعلى مائدة الطعام جلسوا يتحدثون ، وهو يتأمل فراستهم ، فقال ربيعة : ما رأيتُ أطيب من هذا اللحم ، لولا أن أمه غُذِّيَتْ بلبن كلبة ، فلما شربوا من الشراب قال مُضَر : شراب طيب لولا أنْ كَرْمته زُرِعت على قبر ، ثم قال أنمار : هذا الرجل من سَرَاة القوم وهو سيد ، إلا أنه ليس ابن أبيه ، فقال إياد : والله ما رأينا كلاماً أحسن من كلامنا بعضنا مع بعض .

---

(١) الدهمة : السواد . والأدهم : الأسود ، يكون فى الخيل والإبل وغيرهما . [لسان العرب - مادة : دهم]

(٢) الخباء من وبر أو صوف ، وهو من بيوت الأعراب ، دون المظلة ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وقد يستعمل فى المنازل والمساكن ، ومنه الحديث : أنه أتى خباء فاطمة وهى فى المدينة ، يريد منزلها . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة خبا] .

(٣) الرذال : هو الردىء من كل شىء . والرذال : ما انْتُقِى جيده وبقى رديئه ، والأرذل من كل شىء : الردىء منه . [لسان العرب - مادة : رذل] .

ثم قام الأفعى الجرهمى واستدعى الراعى الذى ذبح لهم الشاة ، وسأله : ما هذه الشاة التى ذبحتَها لنا ؟ فقال له : ماتت أمها بعد ولادتها ، ولم يكُنْ عندنا شياه مرضعة ، فأرضعتُها من كلبة ، ثم سأل كهرمانه عن الشراب فقال : هو من العنبة التى زرعْتَها على قبر أبيك ، فلم يَبْق إلا أنْ يسأل عن نسبه إلى أبيه ، فذهب إلى أمه وقال لها : يا أمى ، أخبرينى مَنْ أنا ؟ ومَنْ أبى ؟ فأحسَّتْ الأم أنه سمع شيئاً فقالت له : لقد كان أبوك مَلِكاً مطاعاً ، وذا نعمة ومال ، إلا أنه لم ينجب ، فخشيتُ أنْ يذهب هذا المُلْك وهذا المال إلى غيره ، فحدث ما حدث .

عندها عاد إلى ضيفانه وقال لهم : لم تعودوا فى حاجة إلىَّ ، وإنما يصبح الناس جميعاً فى حاجة إليكم . فإنْ سألتَ الآن : وكيف عرف هؤلاء ما عرفوا ؟ نقول : إنها فراسة وقوة ملاحظة تدخل تحت هذه الآية ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١)﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾

ما دام أنه - سبحانه وتعالى - هو الخالق ، فمقتضى الخَلْق أنْ يوفر الله للمخلوق ما يصلحه ، فهو أولاً يحتاج إلى رحمة فى بقاء حياته ؛ لذلك يُنزل سبحانه المطرَ فيحيى الأرضَ بالنبات ليزرع الإنسان ويأكل ويشرب ، وهذا قوام حياته المادية ، ثم يوفر له أيضاً قوامَ حياته الروحية المعنوية ، فيُنزل عليه ما يحفظ قيمه ، وما يُنظم

حـياتـه بأدب مع غيـره ، وهذا هو المـنهج الذى قال الله فـيـه ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢)﴾ [الزخرف]

وهذه الرحمة إنْ أرادها الله بعبد ، فـلا أحدَ يمنعها عنه ﴿مَا يَفْتَحِ (٢)﴾ [فاطر] يعنى : يعطى ويمنح ﴿فَلا مُمْسِكَ (٢)﴾ [فاطر] فلا مانع ولا حابس لها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ (٢)﴾ [فاطر] لا معطى ﴿لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (٢)﴾ [فاطر] أى : من بعد الله .

وتأمل الأسلوب القرآنى فى ﴿مَا يَفْتَحِ (٢)﴾ [فاطر] مقابلها يغلق ، لكن الحق سبحانه لم يَقُل : وما يغلق ، إنما ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (٢)﴾ [فاطر] لماذا ؟ قالوا : لأن المغلَق ربمـا تمكَّن أحد من فتحه بالحيلة أو بالقـوة ، أما ﴿مَا يُمْسِكْ (٢)﴾ [فاطر] فلا أحـدَ يستطيع أنْ ينال شيئاً أمسكه الله .

ومن معانى هذا الفتح وهذه الرحـمة : الرسالة التى خَصَّ الله بها سيدنا رسـول الله ؛ لذلك قال الكفار ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وقالوا : ﴿ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا (٨)﴾ [ص]

فردَّ الله عليهم :﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

يعنى : تأدبوا مع الله ، فـهو الذى قـسم لكم أمـور الدنيا وأمـور المـعايش ، أيتـرك لكم ولأهوائكم أنْ تُقـسِّـموا الوحى ، وأنْ تجـعلوه ينزل على مَنْ تهوون ؟

والفتح : إزالة حـاجز بين شيئـين ، ومنه حِسىٌّ كما نفـتح الباب

أو الشنطة مثلاً ، كما ورد فى القرآن : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ (٦٥)﴾ [يوسف]

وقد يكون الفتح أمراً معنوياً كالفتح بالخير ، أو بالرحمة كالوحى الذى اختص الله به سيدنا رسول الله ﷺ ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (٧٦)﴾[البقرة] يعنى : من الوحى الموجود فى التوراة من صفة النبى ﷺ ، هذا فَتْح معنوى بالخير وبالبركة .

ومن معانى الفتح : الفصل وفضّ الإشكال بين الخصوم ، كما فى قوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف]

وعلَّة قوله تعالى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا . . (٢)﴾ [فاطر] ، لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، ولا إله غيره ، فلو كان معه إله آخر لكان له رأى آخر ، أمَّا الحق سبحانه وحده فيتصرف فى مُلْكه تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، وإلا فكيف يثق بأنه حين يقول للشىء كُنْ فيكون أن الشىء يطيعه ؟

فالله يقول هذا الأمر ، وهو يعلم أن الشىء سيطيع ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يقول له لا تطع ، لذلك أول مَنْ شهد بالألوهية والوحدانية الواحدة هو الله سبحانه ، شهد بها لنفسه سبحانه ، فقال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (١٨)﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، لذلك أقبل على الأشياء بكُنْ فكانت ، وسمعت ، وأطاعت ، ونفذت .

واقرأ : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : سمعتْ بوعى وحَقّ لها أنْ تسمع ، وأن تطيع ؛ لأنه ليس لها إله آخر يعارضها إنْ أطاعتْ .

وبعد أنْ شهد الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات شهدتْ بذلك الملائكةُ شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد أولو العلم شهادةَ التدليل :
﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾[فاطر] نعم ، مادام أنه تعالى إله واحد لا شريك له ، يرسل رحمته لمن يشاء ، ويمسك عَمَّنْ يشاء فهو عزيز ، والعزيز هو الذى لا يُغْلَب ولا يُمَانع ، لكن هذه العزة وهذه الغلبة ليست صادرة عن بطش أو ظلم أو جبروت ، إنما صادرة عن حكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر] فهو سبحانه حكيم فى عطائه ، حكيم فى منعه ، والحكمة - كما قلنا - هى وَضْع الشىء فى موضعه المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

الحق سبحانه يمتنُّ على عباده ويُذكِّرهم بنعمه عليهم ، ويذكر أول هذه النِّعم ، وهى نعمة الخَلْق من عدم ، وأراد سبحانه أنْ يبرز لهم هذه المسألة إبرازاً يشاركه - سبحانه وتعالى - فيه ، فلم يأت الأسلوب فى صورة الخبر : أنا خلقتكم . إنما جاء فى صورة الاستفهام ليقولوا هم ويُقرُّوا ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ (٣)﴾ [فاطر]

ومعلوم أن الخبر عُرْضة لأنْ يُكذَّب ، أمّا الاستفهام فلا تستطيع أن تكذبه ، وأنت لا تستفهم عن شيء فعلْتَه إلا إذا كنتَ واثقاً أن الإجابة ستأتى على وَفْق مرادك ، فحين ينكر شخصٌ جميلَك لا تقول له : فعلتُ لك كذا وكذا ؛ لأنه ربما كذَّبك ، إنما تقول : ألم أُقدِّم لك كذا يوم كذا ؟ حينئذ لا يستطيع إلا أن يُقرَّ بجميلك ، فلن يجد إجابة عن سؤالك إلا الإقرار .

كذلك الحق سبحانه يُقرِّرهم بنعمه ليكون الإقرارُ حجةً عليهم ويسألهم ، وهو سبحانه أعلم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم (٣) ﴾[فاطر] ثم يذكر هو سبحانه النتيجة ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (٣) ﴾[فاطر] ولم يقولوها هم؛ لأنهم (مربوكون) وكان المنطق : ما دام هو سبحانه الخالق الرازق فعليهم أنْ يؤمنوا به ، وقالها سبحانه بصيغة الغائب ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (٣) ﴾[فاطر] ولم يقُلْ إلا أنا ، كأنه سبحانه هو الشاهد فى هذه المسألة ، كأنه يتكلم عن الغيب .

وقوله ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾[فاطر] يعنى : كيف بعد هذا تُصرفون عن توحيده وعن الإيمان به ، وتُؤفكون من الإفك ، وهو قَلْبُ الشيء عن موضعه وصَرْفه عن محله ، ومن ذلك المؤتفكة ، وهى القرى التى أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها ، وقلَبها على وجهها .

والإفْكُ أيضاً بمعنى الكذب ؛ لأنه يقلب الحقيقة ، فكأن الحق سبحانه يقول لهم : كيف تقلبون الحقائق ؟ وكيف تصرفون خَلْق الله ورزْق الله إلى غيره سبحانه ؟ يعنى : قولوا لنا علّة ذلك .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الوحدانية والألوهية أراد أنْ يتكلم سبحانه عن مُرْسَل الألوهية إلى الخَلْق :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④ ﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ، كما خاطبه ربه بقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ⑨ ﴾ [الأحقاف] لستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ، فمن قبلك كذِّبوا ، وهذا أمر طبيعي ؛ لأن السماء لا ترسل رسولاً إلا حين يعمُّ الفساد ، ويفتقد الناسُ الوازعَ والرادع ، لا من النفس للنفس ولا من المجتمع .

وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل في النفس الإنسانية رادعاً ذاتياً يردعها حين تخرج عن منهج ربها ، وهي النفس اللوامة ، فإنْ توارتْ هذه النفس وغلبتْ عليها النفس الأمَّارة بالسوء جاء دور المجتمع الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإنْ فسد المجتمع فلا بُدَّ أنْ يأتي رسول جديد بمعجزة جديدة ليجدد للناس ما غفلوا عنه من دين الله .

وكوْنُ رسالة محمد هي الخاتمة ، فلا رسول بعده ، هذه شهادة لأمته أنها سيظل فيها الخير ، وستظل مأمونة على دين الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④ ﴾[فاطر] أي : في الآخرة ، فمَنْ كذَّبك من قومك إمَّا أنْ يأخذه الله في الدنيا كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، وإما أنْ يُؤخِّر له العذاب في الآخرة .

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن الأصل الثالث من أصول التشريع ، فبعد أنْ تحدث عن الألوهية والوحدانية ، وتحدَّث عن الرسول ، يتحدث عن المسألة الثالثة التي اختلفوا فيها ، وهي البعث والحَشْر والحساب :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾

يعنى : وعده حَقٌّ فى أنكم ستُردُّون إلى الله فى الآخرة ، فيحاسبكم ويُجازيكم ، المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وهذا مبدأ معروف ومعمول به فى كل المجتمعات ، حتى البدائية منها ، وحتى الملاحدة يعملون بهذا المبدأ ، فيعطى المُجدَّ ويعاقب المقصِّر ، بل بعض هؤلاء يضعون قوانينَ للثواب والعقاب أصرم وأشدّ من قوانين الله ، مثل قوانين الإعدام والشنق ومصادرة الأموال .. إلخ .

والمجتمع لا يستقيم أمره إلا بهذا المبدأ ، فإن اختلَّ تطبيقه فَسَد المجتمع ، وأُحْبط الأفراد ، وعمّتْ الفوضى ، ولم لا والمحسن لا يأخذ ثمرة إحسانه ، والمجرم لا يُعاقب على جريمته ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ نربى فى الناس وازعَ الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ؛ ليزداد المحسن فى إحسانه ، ويرعوى المسيىء عن إساءته .

وكيف لا يُقبل هذا المبدأ فى عالم مليء بالمظالم والتعديات والبطش والجبروت ، ثم لا يأتى الوقت الذى ينال فيه كُلٌّ ما يستحقه ؟

لذلك كثيراً ما أذكر ما دار بيننا وبين الشيوعيين الذين ينكرون مسألة البعث والحساب ، فكنتُ أقول لهم : لقد أخذتم أعداءكم وقتلتموهم ، وصادرتم أموالهم ، وفعلتم بهم الأفاعيل ؛ لأنهم فى نظركم غيَّروا مقاييس العطاء ، فما بال مَنْ فعلوا هذا وظلموا ، لكنهم أفلتوا منكم ، ولم تَطُلْهم أيديكم بعقاب ؟

وما بال الظالمين قبلكم وبعدكم ؟ أليس من الصواب القوْلُ بموعد

يجمع هؤلاء جميعاً للحساب ، حيث ينال كل منهم جزاءه ؟ أليس هذا الجزاء يسعدكم ويُثلج صدوركم حين ترونْ الظالم يُؤخذ بظلمه .

إذن : كان عليكم أنْ تؤمنوا بهذا اليوم ، لا أنْ تنكروه وتكفروا به، وهو يقوم على نفس المبدأ الذى تنادون به أنتم .

لذلك تلحظ أن النداء هنا لكل الناس : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۝ ﴾[فاطر] أى : وعده بالقيامة والبعث والحساب ، فهذه مسألة يُخاطب بها كل الناس ، ووَعْد الله حَقٌّ ؛ لأن الوعد يأخذ حقيَّة من الواعد ، ومن قدرته على إنفاذ وعده ، ومَنْ أقدرُ من الله ؟

إذن : ينبغى أن نثقَ فى الوعد إنْ جاء من الله سبحانه ، ولا نثق فى وعد مَنْ لا قدرةَ له فى ذاته .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان يَعد وينوى الوفاء وقت الوعد ، لكنه لا يملك أسباب الوفاء ، فربما طرأ عليه طارىء ، أو تغيَّرت الظروف ، فحالتْ بينه وبين الوفاء بوعده ؛ لذلك يُعلمنا ربنا أدباً عالياً فى هذه المسألة فى سورة الكهف ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ۝ ﴾ [الكهف] فتعليق فعْلك على مشيئة ربك يُعفيك من الكذب إنْ عجزْتَ عن الوفاء ، فلَكَ أن تقول : نويتُ الوفاء ، لكن الله لم يشأ .

لذلك لا يُوصَف وعد بالحقية إلا وعد الله ؛ لأنه سبحانه وحده الذى يملك كل أسباب الوفاء بوعده . ولا يعوقه عن الوفاء شىء ، ولا يمانعه أحد .

وما دام أن وعد الله حَقٌّ ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۝ ﴾[فاطر] لا تخدعنّكم ؛ لأن الناس طبائع ، منهم مَنْ يغتر بثناء الناس عليه ،

ومنهم مَنْ يغتر فى ذاته ، وهذا هو الذى تغرُّه الحياة الدنيا بشهواتها ، فيعيش فيها بلا تكاليف وبلا التزامات ، كما فعل الكفار حين عبدوا الحجارة ، لأنها آلهة بلا تكاليف .

لذلك يحذرنا ربنا : لا تخدعنكم الدنيا عن شىء آخر أعلى منها هو الآخرة ، ويكفى ذَماً لهذه الحياة أن الله تعالى سماها دُنْيا ، والمقابل للدنيا حياة عليا هى الآخرة ، فالمعنى : لا تخدعنكم الدنيا عن مطلوب الله الذى يؤهلكم لحياة أخرى عُلْيا .

وسبق أنْ بيَّنا أن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها ، لا عمر الدنيا كله ، وعمرك فى الدنيا رغم قصَره هو عمر مظنون ، ونعيمك فيها على قدر حركتك فيها ، أما عمرك فى الآخرة فمتيقن ، ونعيمك فيها على قدر إمكانات الله ، وأنت مهما بلغتَ من نعيم الدنيا يُنغِّصه عليك أنْ يزول ، إما أن تتركه أنت وتموت ، أو يتركك هو فتظل فى الدنيا رغم غنَاك وتمتعك بها ، مُؤرَّقاً مشغولَ البال خائفاً من فوات النعمة ، أما فى الآخرة فالنعمة باقية دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . إذن : إنِ اغتررتَ بالدنيا فأجْرِ هذه المقارنة .

لذلك ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن هذه الحياة وصفها بأنها دُنْيا ، ولما تكلم عن الآخرة قال : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت] فمعنى الحيوان أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا يهددها موْتٌ ولا فناء ، فيجب - إذن - أنْ تتنبه ، وأنْ تختار البديل الأرجح والأنفع لك ؛ لذلك نقول للذين اعتمدوا على الله وعاشوا فى كَنَف الله وعلى منهج الله نقول : إنهم عرفوا كيف يسوسون حياتهم ، فأخذوها من أقصر الطرق ، ونَصِف هؤلاء بالمكر ، والمراد المكر العالى المكر الحسن .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن الحق سبحانه لنا حبائلَ الدنيا ووسائل